

عالمية اللغة العربية

رهن بقوة العرب في الحقل الدولي

الإنزواجية إنعاشي دعم للتوازي العلي

الأستاذ فوزان الشايب

(دمشق)

كيف دانت للغتنا العربية شعوب الروم والفرس ،
فكتب محولهم بالعربية وخذلوا بها في تاريخ الفكر
العربي في ظلال مجد الدولة وقوة السلطان واليوم
لا يخفى على احد كيف انتشرت الفرنسية
والانكليزية بين الملايين في افريقيا وآسيا ، واللغة
الروسية بين الملايين في اوربا الوسطى والشرقية.

وعندما تكون اللغة العربية لغة الدولة
العربية الكبرى ذات مئة المليون - نستطيع ان
نتصور الكثير والقليل عن مدى ازدهار اللغة وراء
سيادة الدولة - وعالميتها .

ثالثا - المستوى الثقافي :

تؤلف قضية المستوى الثقافي في مجتمعنا
العربي ، مشكلة اساسية ، اقل القول فيها انها هي
التي تقرر مسيرة اللغة ، ومصيرها معا فالمجتمعات
التي لا يؤلف فيها جمهورها وعيا ثقافيا معيناً ،
تتضائل فيها الحاجة الى لغة غنية معاصرة لحاجات
الانسان ، وينحدر فيها الانتاج الفكري الى مستوى
التفاهات ، ويساوم عليه مع خسيس البضاعات ،
وفي هذه المجتمعات لا كرامة لمفكر ، ولا رزق ايضا ،
وتنعدم الحاجة الى اللغة ، بتعدام الحافز الى
التقدم ، والحاجة الى المعاصرة فاللغة القابضة
في عقر دارها ، هي قرينة الفكر الضامر في اطماره ،
وطبيعي ان اللغة التي لا تبارح دائرتها الصغيرة ، لا
تستطيع ان تخطو في العالم الخارجي ، خطوات كثيرة
او قليلة .

ان معضلة اللغة في هذه المجتمعات لا يمكن
ان تطرح منفصلة عن مادتها الغذائية ، فاللغة
لسان الحياة والحاجة ورباط بينها معا ، فاذا كانت

تعرض سير اللغة العربية ، وتحد من انتشارها
ثلاثة حوائل ، يؤلف كل منها قضية قائمة بذاتها ،
ومترابطة بعضها ببعض ، في الوقت نفسه .

اولا - الحرف العربي :

ان رسم الحرف العربي وان يكن يؤلف حائلا
جدبا ، دون بلوغ اللغة العربية مستوياتها العالية ،
وجهاهيرا الواسعة ، فان تضيته ليست بالمعضلة
التي يمكن ان نجد لها حولا سريعة تافهة كأن تعدل
عن الحرف العربي ، الى الحرف اللاتيني ، كما فعلت
(تركية اتاتورك) ، او كما يقترح بعض المتحدلقنة
العرب ، ممن يظنون انهم قد وجدوا الثغرة من جانب
الحرف ، للعبث بالتراث العربي ، بدءا من الالف
حتى الياء وللتترك ولسواهم ان يلتنوا) حروفهم فهم
ليسوا شيئا من ترائسا .

وقد كتب كثيرون في استحالة (تلتين) الحرف
العربي من جهة ، وعدم جدواه من جهة ثانية ، بقطع
النظر عن القضية القومية بالذات ، ولست انوي
هنا ان اكرر ما قيل وحسبي القول ان الدعوة
اللاتينية ، هي تزوير لطرح القضية ، وقد
بادت الدعوة ، كما باد سواها من الدعوات
الشعبوية والاستعمارية المعادية لحقيقة الوجود
العربي .

ثانيا - سلطان الدولة :

ان القيمة السياسية لسلطان الدولة ، قضية
قومية عربية تعكس ظلالها على واقعنا الثقافي ،
ومنذ اقدم الازمنة ، اقتترنت امجاد اللغات بامجاد
دولها وانطقت لغات ولهجات بانطفاء الجماعات
التي قامت عليها ونطقت بها ، ونحن ادري الاقوام

الحياة تافهة والحاجة مقصورة على البدائيات ، انعدم الشعور بضرورة تعزيز الرباط بين الحياة والمجتمع ، وتصبح عشرات الكلمات كافية للتداول بديلا عن الالوف .

ففي معالجة مشكلات هذا المستوى الثقافي المتدني ، لا يطرح السؤال : هل اللغة العربية ، متخلفة عن الركب المصري ، بل السؤال : هل اهل اللغة انفسهم هم المتخلفون ، فالمعضلة ، وحلولها ليست في اللغة بل في القوم الذين يتداولونها ، انها قضية (اجتماعية ثقافية) في المقام الاول ويجب ان نعالجها ليس على اساس انها تركيب حروف ، بل تكيف شروط اجتماعية انسانية ، في مكان ما وزمان ما .

وعلى هذا فان معالجة مشكلة اللغة العربية ، ليست بالحصص معالجة اكااديمية ينصرف اليها العلماء والاختصاصيون ، وناحتو الالفاظ ، وناجروا اشكال الحروف ، وان تكن الاكاديمية هنا عملية تقنية ، لابد منها في مرحلة الصياغة والتنظيم والتنسيق .

فاذا قلنا مثلا ان انفتاح الحياة الاجتماعية على حاجات العصر ، وفروض التقدم وتيارات الفكر العالمي ، وان تشجيع الروح العلمية ، وتكريم اهل العلم ، وتيسير نشر الثقافة العامة ، من اسباب اعداد المجتمع وتأهيله لتداول لغة غنية متوسعة ، نقول ايضا ان البدء من القاعدة في مكانة الامية ، على مستوى القراءة ، وعلى مستوى التفكير ايضا - سبب رئيسي ايضا من اسباب تكوين الوعي الاجتماعي الثقافي الذي يستطيع ان يحتضن العلماء والمتقنين ، وينهض بهم ، ويحتمل على صعيده وجودهم .. ليعيشوا تادة معه ، لا عالة عليه .

فالتقضية هنا حلقات مترابطة من تعليم الامي ، الى تجهيز العالم الاكاديمي ، الى فتح قابلية الجماهير لبذور الوعي الثقافي ، ولرفض شروط الحياة المتخلفة .

اما جوابي عن الاسئلة الثلاثة الاخيرة فخلاصته فيما يلي :

يبدو ان لا خلاف بين الباحثين المعنيين بالموضوع - وقد استنفت مجلة (المعرفة) في دمشق عددا منهم - حول حقيقتين اساسيتين ، تتفرع عنهما تفاصيل كثيرة :

الاولى ان اللغة العربية صالحة للتدريس

العلمي الجامعي ، ويجب ان تستمر العناية بها لتصبح اكثر صلاحا في المستقبل .

والثانية ان لا غنى للمتعلمين وطالبي المزيد من العلم ، عن التثقف بلغة عالمية اساسية يتابعون بها ثقافتهم التي تؤهلهم لمعاصرة كل مستطرف مستحدث ، وليس ذلك من اجل اغناء ثقافتهم مسلليا وفكريا فحسب ، بل من اجل دفع اللغة العربية عن طريق اهلها من العلماء ، لتسير ابدا على الخط الموازي للتقدم العلمي في العالم .

ففي مدى الحقيقة الاولى اؤكد ان اللغة العربية التي استوعبت في عصرها الذهبي علوم الاولين والآخرين ، غير عاجزة عن مثل هذا في عصرنا الراهن ، ما استطاع اهلها الى ذلك سبيلا ، ولا ضير عليها من الانفتاح الكبير ولا خطر ، الا من طرفي التحذلق ، والتزمت على السواء .

وان هي صلحت الآن ، للتدريس العلمي ، واستيعاب العلوم الانسانية المختلفة ، فيجب ان يستمر هذا الصلاح بجهود عربي مشترك تنهض له مؤسسات علمية وعلماء وادباء ورجال تفرغ واختصاص ، وفي مواضيع العلوم المادية الاكثر امتناعا على اللغة كعلوم الطب والهندسة ، والكيمياء وسواها .

فلا يكفي ان تكون كلية الطب في دمشق - مثلا - قد عادت الى تدريس الطب بالعربية منذ اربعين عاما . اذ يجب ان تتفاهم الجامعات العربية اينما كانت وتتعاون فيما بينها على تنفيذ منهج مقرر في تدريس العلوم ، بلغة علمية لا تترك مصطلحاتها لاختيار الاذواق الخاصة والاقاليم المحلية ، والمجهودات الفردية ، بل ان تنهض لها مؤسسة عربية كبرى ، تشرف على تنظيم اشتراك الجامعات العربية كلها في ايجاد المصطلح العلمي الملائم وفي استعماله معا .

وقد وضع صيغة اقتراح مماثل منذ عام 1945 - العلامة الاستاذ مصطفى الشهابي ، رئيس المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، فطالب بتآزر مجمع اللغة العربية في القاهرة مع جامعة الدول العربية بالاضافة الى اسهام رهط من العلماء والادباء المتفرعين للمهمة الثقافية القومية ، فيتألف من هذه الجهات تنظيم يشبه (لجنة عليا) ذات صلاحيات وطاقات مادية كافية ، تشرف على اخراج (معجم للمصطلحات العلمية) ، يطبع ويوزع بمساعدة

والتنسيق الى الجهاز الاعلى المركزي ، المفروض انه هو الذي يعد العدة لوضع معجم المصطلحات ، فاذا تواصل مكتب تنسيق في الرباط ، مع آخر في دكار ، وآخر في سان باولو ، وآخر في دمشق ، مثلا للتفاهم حول وضع مصطلح ، وتم الاتفاق بأي سبب من اسباب تبادل الرأي ، كان من ذلك حصاد ثمين يوضع امام اللجنة العليا الناظمة ، واذا حصل خلاف رفع الامر الى المرجع اياه ، ليتوافر عليه باحثون ورجال اختصاص ، للحكم المرجح .

ثالثا - يجب اشراك الادباء جنبا الى جنب مع العلماء وفقهاء اللغة وعلماء الاجتماع واصحاب الخبرات ، في تقرير المصطلح العلمي ، على نطاق الوحدات الصغيرة ، والوحدة الرئيسية العليا ، اذ من المفروغ منه ان ادباء كل امة ، قصاصين ، وشعراء ونقاد ، وباحثين اجتماعيين ، وصحافيين ، قد اسهموا اسهاما رائعا بوعي منهم ، او بلا وعي ، وهم يمارسون تجاربهم الفنية بلغة قومهم في تطوير اللغة وتيسيرها وتطعيمها ، ومنحها تلك الطواعية ، والعنوية والليونة في استعمال اللفظ والمصطلحات ، انها الاديب الحق ، من احب لفته وفهمها ، وجبل ترابها بتراب ذاته ، وابدع بها غاية ما في طاقة اللغة من ابداع ، ولهذا يجب ان تكون آثار الادباء مراجع لدرس تطور اللغة واستعمال مصطلحاتها وتداولها .

رابعا - واخيرا فلي كلمة انها بكثير من الصراحة لاقول ان المنظمات الرئيسية والفرعية ، على نطاق الحكومات ، والجامعة العربية ، ومكاتب التنسيق ، وسواها ، ومن يوكل اليهم شأن من شؤون اللغة افرادا وهيئات ، يجب ان تخلو من احد اثنين من حائري انفسهم في معركة تطوير اللغة وهما : المتحلق والمتزمت :

فالمتظرف بالثقافة ، المغرور بها ، الذي بلغ به العلم حد اقتلاع جذوره من مجتمعه وبيئته - واقل اوصافه انه متحلق - قد يزعم ان العلم لغة انسانية عالمية ، لا وطن لها ولا ضرورة لاحاطتها باطار قومي ، لان العلم لاسرته الشاملة ولاسانيته المطلقة ، واقل ما نجابه به هذا الدعي المتحلق ، هو التأكيد بان تطور العلم ، وما احزره من توسع وتعمق انما بلغ ما بلغه بمشاركة جميع الاقوام ، قديمها وحديثها ، وبلغاتها نفسها ، وكانت التي تعطي العلم تعطي لغتها معه ، وقد اعطى العرب ، نجوما تسبح في

الحكومات العربية وتبها له اسباب الانتشار الواسع ويتجدد بين الحين والحين ، بالاضافات والتعديلات ، شأنه شأن أي عمل انسيكلوبيدي ، ويكون مرجعا يقتضي الالتزام به ، دون ان يغلق الباب امام نقده وتعديله .

وفي مدى الحقيقة الثانية فثمة اجماع ايضا على ضرورة اعداد الطالب العربي في مرحلتي التدريس الاعدادية ، والجامعية ، اعدادا لانتقا لتلقي العلوم باحدى اللغات العالمية الانتشار ، وان هذا الاعداد الثقافي للطالب العربي ، يجب ان يتوازي مع خط تدريس العلوم باللغة العربية ، ليتبادل الخطان باستمرار شرارات الاشتعال ، حتى يأتي اليوم الذي تصبح فيه اللغة العربية ، لغة علمية واسعة لا تنازع في صلاحها ، تستطيع ان تأخذ كما تستطيع ان تعطي انها يجيء هذا الامر بالتدرج ، وبالتطور الذي ينمي اللغة ، وينمي طاقات المجتمع المتخلف معا. ولا فضل ايدا بين اللغة والمجتمع في محاولات العلماء والمصلحين ، ساسة وقادة الفكر ورجال علم .

واما ملاحظاتي الخاصة حول ما اوجزت من آراء الباحثين ، فجماعها :

اولا : يجب الشروع على الفور في انشاء مجلات علمية اختصاصية ، باللغة العربية ، تدعم (الكتاب الجامعي) ، (ومعجم المصطلحات) ايضا وتجعل معاصرة العلم شأننا يوميا من شؤون الكثرة من المعلمين ، ولعل هذه الهيئة العليا المنوط بها امر اللغة العلمية - لجنة ام مجلسا - تصلح ان تقوم بنفسها ، او توصي الحكومات لاصدار هذه المجلات العلمية المسيرة امام جمهور المثقفين والمتعلمين بأدنى الاسعار ، ان الافراد والهيئات الخاصة كما هو معلوم لدينا عاجزون عن القيام بمثل هذه الاعمال النثرية ، ذات التكاليف الكبيرة ، والجمهور المحدود وسهم الدولة العربية في هذا المشروع سهم رئيسي كلي .

ثانيا - يجب ان تكثر وتتعدد في نطاق الوطن العربي والمهاجر ، والاطان الآسيوية الامريكية التي تعنى باللغة العربية وتحثي بها ، مكاتب الجامعة العربية لتنسيق التعريب ، او مراسلون في بعض الامكنة يحلون محل المكاتب ، على ان يكون التراسل بين هذه المكاتب مستمرا وفعالا ، بالمراسلة أو بطريق عقد المؤتمرات وايفاء الوفود هيئات وافرادا حتى تصبح هذه المكاتب وسائل فعالة لنقل تيارات التعريب

والثقافي ، لكي تموت موتا تلقائيا بسوء
التغذية . وان تكن سياسته اللغوية مقصورة على
المصلحين ، فهو قائل حق يريد به باطلا .

حتى في احسن حالات الظن به والاشفاق عليه،
فهو ليس اكثر من زوج مسكين يقتل زوجه حبا بها
وغيره عليها..

واخيرا لقد آن اوان العمل ، بعد ان تجمع
حول المسألة رأي عام مثقف على نطاق عربي ،
يطالب بانشاء مؤسسة عليا ، في مركزها وفروعها ،
في مكاتبها ومراسليها ، لتنشيط حركة
التعريب وتنسيقها ، وضبطها والتأليف
فيها وأن للدول العربية أن تدرك خطورة هذه الدعوة
لتعزيز رابطة الروابط القومية فيما بينها ،
وتأكيد عزمها على الخروج فعلا من نطاق المجتمعات
التخلفة .

الإنفلاك اسماء لا يزال العالم حتى اليوم ينطق بها ،
وسيظل ينطق الى الابد ، دون ضمير ولا غضاضة .

أما من يجهل أو يتجاهل لغة قومه ، ليتقن
لغة اجنبية ، يتذرع بها في ما يسميه ولاه لانسانية
العلم ، ضد لغته وقومه ، فلا أقل من القول بأنه
انسان ناقص العلم والانسانية معا .

أما المتزمت الذي يطيب له أن يسخر من العقل
والعصر والناس ، ليزعم أن ما من مصطلح علمي ،
الا ويوجد لفظه المناسب بالعربية ، أو انه بالأصل
عربي تمح .. لانه منقول عن كذا ، ومحرف عن كذا -
هذا المتزمت يجب ان يكون احد اثنين : إما جاهلا
لا يحق له الانتساب الى العلم ، وحسبه منه التتعمر
والدعوة والحمية الباطلة ، أو متواطئا على حشر
اللغة العربية في نطاق حديدي ، لا تتعداه الى العالم
الخارجي الا راسفة في اغلال ثقيلة تاتلة ، والمبيت
لغة شرا هو من اراد ان يفقر مضمونها اللغوي